

الفصل الثاني :

شعراء معاصرون من البلاد العربية والإسلامية

١- الأمير عبد الله الفيصل.. من السعودية

٢- نزار قباني.. من سوريا

٣- الهادي آدم.. من السودان

٤- علي أحمد باكثير.. من اليمن

٥- أحمد العدوانى .. من الكويت

٦- جورج جرداق .. من لبنان

٧- محمد إقبال .. من باكستان

تمثل أعمال الشاعر السعودي الأمير عبد الله الفيصل نقطة تحول هامة في مسيرة حياة أم كلثوم مع شعراء القصائد العربية، وذلك من عدة جوانب.. من أهمها، أنه يعتبر أول أمير عربي مارس السياسة، وينتهي نسبه إلى إحدى الأسر الحاكمة - الآن في المملكة السعودية - حيث كان والده المرحوم الملك فيصل بن عبد العزيز ملك السعودية الراحل. هذا الأمير تغنت أم كلثوم بكلمات من إحدى قصائده. كما يعتبر في الوقت نفسه أول شاعر عربي في العصر الحديث تشدو بكلماته أم كلثوم، وذلك بعدما قطعت مشواراً طويلاً مع شعراء القصيدة العربية من القدامى، وكما سبق وذكرنا ذلك من قبل. ولقد غنت كوكب الشرق أم كلثوم للأمير عبد الله الفيصل قصيدتين طويلتين إحداهما في عام ١٩٦٢ بعنوان «ثورة الشك».. والثانية في عام ١٩٧١ بعنوان «من أجل عينيك».

وعندما رجعنا إلى الديوانين المنشور فيهما هاتين القصيدتين، وجدنا كالعادة أشياء كثيرة مختلفة وملاحظات هامة تستحق أن نتوقف أمامها طويلاً، وكما هو معروف فإن رحلتنا عبر هذه الكلمات تبدأ دائماً بالقاء الضوء المبهر على ما شددت به أم كلثوم من كلمات.. ثم بعد ذلك نواصل المسير نحو الهدف المطلوب، للتحقق مما حدث من تعديلات أجريت على هذه القصيدة أو تلك!

ففي عام ١٩٦٢ غنت سيدة القصيدة العربية أم كلثوم كلمات اختارت لها عنواناً يقول «ثورة الشك» للأمير عبد الله الفيصل.. وقد لحنها أمير الموسيقى العربية رياض السنباطي، وتقول هذه الكلمات:

أكاد أشك فيك وأنت منى
ولم تحنظ هوياً ولم تصنى
إليك خطى الشباب المطمئن

أكاد أشك في نفسي لأنسى
يقول الناس إنك خنت عهدى
وأنت منايا أجمعها مشئت بي

وتسمع فيك كل الناس أذنى
أقضت مضجعى واستعبدتنى
بحدث عنك فى الدنيا وعنى
وتبصر فيك غير الشك عينى
ولكنى شقيت بحسن ظنى
من الشجن الموزق لا تدعنى
وتشفى بالظنون وبالتمنى
حديث الناس ألمرتخنى
أكاد أشك فيك وأنت منى

يكذب فيك كل الناس قلبى
وكم طافت على ظلال شك
كأنى طاف بى ركب الليالى
على أنى أغالط فيك سمعى
وما أنا بالمصدق فيك قولاً
وبى مما يساورنى كثير
تعذب فى لهيب الشك روحى
أجبنى إذ سألتك هل صحبح
أكاد أشك فى نفسى لأنى

وفى الديوان الذى نشرت به هذه القصيدة والذى صدر فى عام ١٩٥٤ تحت عنوان «محروم - وحى الحرمان» لاحظنا أن هذه القصيدة قد أصابها بعض التغيير الذى أدخلته أم كلثوم وشاركها الملحن رياض السنباطى، بعد استشارة الشاعر عبد الله الفيصل الذى قيل وقتها أنه جاء إلى القاهرة لإجراء هذه التعديلات.

فقد اختارت أم كلثوم عنواناً لهذه القصيدة.. وهو «ثورة الشك» بدلاً من عنوانها المكتوب بالديوان وهو «عواطف حائرة».. كما اختارت أم كلثوم من القصيدة الأصلية الأبيات الثلاثة الأولى، وأهملت الأبيات من الرابع حتى السادس.. وهى الأبيات التى يقول فيها الشاعر:

وقد كاد الشباب لغير عود
وما أنا فاتنى القدر الموالى
كان صباى قد ردت رواء
على جفنى المسهد أو كأنى^(١)

ومن بعد هذه الأبيات الثلاثة واصلت أم كلثوم اختيار كلمات وأبيات هذه القصيدة وفق ما ارتضاه المؤلف من ترتيب.

ومعنى ذلك أن العدد الكلى لأبيات هذه القصيدة وفق ما كتبه الشاعر.. ونشره فى ديوانه المنوه عنه.. هو أربعة عشر بيتاً.. أما أم كلثوم فقد غنت من هذه الأبيات اثنتى عشر بيتاً فقط.

(١) (ديوان : محروم - وحى الحرمان) ص ٥٨ دار المعارف فى بيروت - طبع عام ١٩٥٤.

وهناك ملحوظة هامة لابد من الإشارة إليها في هذا السياق .. وهى أن هذا التبديل والتعديل لم يؤثر كثيراً في سير أحداث القصيدة. سواء ونحن نسمعها بصوت أم كلثوم أو حتى حين نقرأها من ديوان الأمير عبد الله الفيصل، وهنا تكمن العبقرية ويظهر الإعجاز!

وبعد نجاح قصيدة «ثورة الشك» أو «عواطف حائرة»، وبعد مرور أكثر من تسع سنوات على تقديم أم كلثوم لتلك القصيدة عادت كوكب الشرق لتختار قصيدة ثانية من تأليف الشاعر الأمير عبد الله الفيصل، وهى التى تغنت بكلماتها فى عام ١٩٧١ تحت عنوان «من أجل عينيك» من تلحين رياض السنباطى أيضاً

وتقول كلماتها:

من أجل عينيك عشقت الهوى
وأصبحت عيني بعد الكرى
يا فاتننا لولاه ما همزنى وجد
هذا فزادى فامتلك أمره
بعد زمان فيه الخلى
تقول للنسهد لا ترحلى
ولا طعم الهوى طاب لى
فاظلمه إن أحببت أو فاعدل

من بريق الوجد فى عينيك
وعلى دريك أنى رحمت
والرؤى حولى غامت
والمنى ترقص فى قلبى
أشعلت حنينى
أرسلت عيونى
بين شكى وبقينى
على لحن شجونى

أنتشف الوجد فى صوتك
تتوارى بين أنفاسك كى
لست أدرى أهو الحب
أرتخوفت من اللوم
أهك دفينه
لا استنبينه
الذى خفت شجونه
فأثرت السكينه

كالنور فى وجنه صبح ندى
تبكى كطفل خائف مجهد
إلا سراباً عالقاً فى يدي
فى قسوة أعنف من حسدى

وقد كانت عذائباً
وقد كانت سراباً
سنراً وحجاباً
واستبق العناباً

ورغاب عن عيني ولم أهتدي
وقمنيت أن يطول عذابي
وهى عمرى وصبوتى وشبابى
رجع لحن من الأغاني العذابي
حين لم تلتقى لتسأل ما بى

وفى الديوان الذى صدر تحت عنوان «حديث قلب» .. أخذنا فى البحث عن أصل هذه القصيدة لأجل الوصول إلى تأصيل حقيقى لها من واقع ما سطره الشاعر عبد الله الفيصل .. وما إذا كانت هناك تعديلات جوهرية قد أجرتها أم كلثوم على هذه القصيدة .. أم غنتها كما هي .. وكما كتبها الشاعر.

ومن أعجب ما عثرنا عليه داخل هذا الديوان الذى طبع فى عام ١٩٧٠ .. وجود عدة أصول لقصيدة «من أجل عينيك» وليس أصل واحد ، أو بمعنى آخر وجدنا أن هذه القصيدة التى غنتها أم كلثوم بهذا العنوان .. هي فى الحقيقة مجموعة من القصائد!!

فقد أخذت أم كلثوم تنتقى من عدة قصائد من تأليف الأمير عبد الله الفيصل . عدة أبيات .. أطلقت عليها فى النهاية اسم «من أجل عينيك» ، مع أن القصيدة الأصلية والتى

نشرت بالعنوان ذاته فى الديوان نفسه موجودة .. وعدد أبياتها تسعة عشرة بيتاً، إلا أن كوكب الشرق قد اختارت من هذه القصيدة .. أربعة أبيات فقط .. اثنان فى أول القصيدة وهما:

من أجل عينيك عشقت الهوى بعد زمان كنت فيه الخلى
وأصبحت عيناي بعد الكرى تقول للتسهيد لا ترحلى

أما البيتين الأخيرين فقد اختارتهما أم كلثوم من الجزء الثانى من نفس القصيدة .. وهما
يا فاتناً لولاه ماهزنى وجد ولا طعم الهوى طاب لى
هذا فؤادى فامنلك أمره وأظلمه إن أحببت أو فاعدل

والغريب فى هذا الاختيار .. أن البيتين المذكورين جاءا بلا ترتيب فى القصيدة المنشورة بالديوان .. بمعنى .. أن البيت الذى تقول فيه: «يا فاتنا لولاه ماهزنى» .. كان يتلوه بيت آخر ومطلعه يقول: «يا من على أقدامه بُعِثرت» .. أما البيت الذى مطلعه: «هذا فؤادى فامتلك أمره» فقد جاء ترتيبه السادس !!

وأما الأكثر غرابة فى هذا الإختيار أن الجزء الثانى مما غنته أم كلثوم تحت عنوان «من أجل عينيك» .. وعدد أبياته أربعة .. نشر فى الديوان ضمن قصيدة أخرى بعنوان «بريق الوجد» !! وهو الجزء الذى تقول فيه:

«من بريق الوجد فى عينيك أشعلت حنينى!»

ثم ضمت إليه الجزء الثالث من القصيدة نفسها والذى تقول فى مطلعه:

«أستشف الوجد فى صوتك آهات دفينيه!»

والجزء الرابع الذى تقول فيه أم كلثوم: «ملأت لى درب الهوى بهجة» فقد اختارته من قصيدة ثالثة بعنوان: «كأس الخداع» !!

وقد غيرت فيه بعض الكلمات .. وحتى يتمشى مع الأخان .. فاخترت كلمة «ملأت» بدلاً من «فرشت» !. وكلمة «بهجة» بدلاً من كلمة «زاهياً»، هذا ما حدث فى البيت الأول من هذا الجزء .. أما بالنسبة للبيت الثانى .. فقد اختارت كلمة «شقوة» بدلاً من «لوعة» !، .. ليس هذا فقط .. بل ونراها قد أهملت بيتاً .. ذكره الشاعر وسط هذه الأبيات وهو الذى قال فيه:

لومَلتِ الأنجر نسهاها ماهزك الشوق إلى المرقد
وأما الجزء الخامس والذي تقول في مطلعها أم كلثوم: لا تقل أين ليالينا!
فقد اختارت أبياتاً وعددها أيضاً أربعة من قصيدة رابعة بعنوان «المغيب» !!، كما
غيرت كذلك في بعض كلماته .. إذ اختارت كلمة «ليالينا» بدلاً من كلمة «عشايانا» في
البيت الأول من هذا الجزء ..

وفي البيت الثاني اختارت كلمتي «كانت سرايا» بدلاً من كلمتي «أمسيت يايا»!، وفي
البيت الثالث استبدلت كلمة «أنى أسدلت» بدلاً من كلمة «فلقد ألقيت» .. وفي البيت
الأخير غيرت كلمة «وزر» .. واختارت بدلاً منها كلمة «مر»!
والجزء الأخير من قصيدة «من أجل عينيك» التي شددت بها أم كلثوم من تأليف
الشاعر السعودي الأمير عبد الله الفيصل .. فقد اختارته أيضاً من قصيدة له بعنوان «دورة
الأيام» والتي يقول هو في مطلعها.

لاحاول خداع قلبى العليل بالحديث المنمق المعسول
وقد شمل هذا الجزء أيضاً تغييراً في بعض كلماته .. إذ بدلت أم كلثوم في البيت
الثاني من هذا الجزء كلمة «عذابي» بدلاً من «انتحابي» وفي البيت الرابع غيرت في
السطر الثاني فأصبح: «رجع لحن من الأغاني العذابي بدلاً من: «نغمأ تلتقيه بالترحاب»!
وفي البيت الخامس والأخير من هذا الجزء من القصيدة .. اختارت أم كلثوم كلمة:
«وأنا أحسسى مدامع قلبى» .. بدلاً من: «كنت أحسو من غيرتى دمع قلبى»!، وفي السطر
الثاني غيرت كلمة «لم تلقنى» .. بدلاً من «لم تأتى»!

وبحسبة بسيطة يتضح لنا أن قصيدة «من أجل عينيك» التي شددت بها أم كلثوم .. قد
اختارت كلماتها من خمس قصائد !! .. وقد وافقها المؤلف الشاعر عبدالله الفيصل على
ذلك!، والدليل ما تناقلته الصحف والمجلات الصادرة آنذاك. حيث قالت هذه
الصحف: «وسوف يحضر المؤلف إلى القاهرة للاستماع إلى الأغنية. كما سيقابل أم
كلثوم بعد الوصلة الأولى حيث تكون قد انتهت من تقديم قصيدته» (١).

(١) جريدة الجمهورية في ١٩٧١/١/٦.

وكما تعودنا معاً من قبل .. كان لابد من كتابة إطلالة عن هذا الشاعر الأمير .. من أجل أن تكتمل الفائدة المرجوة من وراء هذا العمل .. ومما لاحظناه أن الشاعر قد أشار إلى بعض ملامح حياته في مقدمة ديوانه «وحي الحرمان» وقد اختار لها عنواناً تقول كلماته . «أجل .. أنا محروم»!، ومما ذكره في هذا الشأن قوله: «قبل أن أتخطى السنة الأولى من عمري أبعدت الظروف أبي عنى سنوات كثيرة متعاقبة لاشتغاله بالحرب والغزوات وشد أزر أبيه وتوطيد ملكه»^(١).

ولد الشاعر عبدالله الفيصل في مدينة الرياض في عام ١٩٢٢، وهو من الأسرة السعودية الحاكمة، فهو نجل أو الابن الأكبر لشهيد الإسلام الملك فيصل وجده هو الملك عبدالعزيز آل سعود، ووالدته هي الأميرة سلطنة السديري.

عاش الشاعر السنوات الخمس الأولى من حياته في كنف جده الملك عبدالعزيز في الرياض، وقد اختاره فيما بعد رغم حداثة سنة وزيراً للداخلية ثم وزيراً للحج، ثم انتقل بعد ذلك إلى مكة حيث عاش في كنف والده الملك فيصل الذي كان آنذاك نائب الملك على الحجاز.

(١) الديوان السابق الإشارة إليه.

كانت خطوة جريئة بحق تلك التي أقدمت عليها كوكب الشرق أم كلثوم حين اختارت كلمات من قصائد الشاعر السوري المولد واللبناني الإقامة نزار قباني ، بل ونستطيع القول في السياق نفسه أنها كانت بالفعل مغامرة عظيمة من فنانة عظيمة، إذ اختارت لشاعر الحب والمرأة والحريير والعمور ، كلمات وطنية لكي تشدو بها.. على عكس ما كان متوقعا، وهي الفنانة رقيقة المشاعر التي تغنت بالحب والآهات لأكثر من أربعين عاماً.

وكانما كانت تريد بهذا الاختيار الغريب توصيل مضمون رسالة إلى كل الفنانين في كل العصور .. بأن الفن لا يعرف المستحيل وكذلك لا يعرف الحدود أو الفواصل السياسية أو الجغرافية.

وعلى الرغم من أن اختيار سيدة القصيدة العربية أم كلثوم لكلمات من قصيدتين كبيرتين للشاعر نزار قباني، قد جاء متأخراً إلى حد ما، فقد كان هذا الاختيار موقفاً إلى حد بعيد، ومواكباً أيضاً لاثنتين من أهم أحداثنا السياسية المحلية والعربية.. وهما اندلاع الانتفاضة الفلسطينية ضد إسرائيل في عام ١٩٦٩، فاختارت أم كلثوم كلمات من قصيدة نزار قباني «طريق واحد» وغنتها تحت عنوان «أصبح الآن عندي بندقية»، وعندما رحل جمال عبدالناصر اختارت كوكب الشرق كلمات القصيدة الثانية لنزار قباني لكي تغنيها تحت عنوان «رسالة إلى والدنا عبدالناصر»!

وكان لكل من هاتين القصيدتين حكاية بدأت مع الكلمات وانتهت بالألحان مع صوت أم كلثوم، ولكن ما هي تفاصيل هذه الحكاية؟ ذلك ما سوف نعرفه بعد لحظات ومن خلال الكلمات التالية:

بالنسبة لقصيدة «طريق واحد».. والتي أصبح اسمها: «عندي بندقية» كما يقول مطلعها. فقد شدت بها أم كلثوم في عام ١٩٦٩ كما سبق ذكرنا، وسجلتها أيضاً في نفس العام على اسطوانة صوت القاهرة من ألحان الموسيقار محمد عبدالوهاب .

وتقول كلمات هذه القصيدة البالغ عددها ثمانية عشر بيتاً وفق منظور الشعر الحديث:

أصبح عندي الآن بندقية
إلى فلسطين خذوني معكم
إلى ربي حزينه كوجه مجدلية
إلى القباب الحضر والحجارة البنية
عشرون عاماً وأنا أبحث
عن أرض .. وعن هوية
أبحث عن بيتي الذي هناك
عن وطني المهبط بالأسلاك
عن كتيبي.. عن صوري
عن كل ركن دافئ.. وكل مزهريه
إلى فلسطين خذوني معكم يا أيها الرجال
أريد أن أعيش أو أموت كالرجال
أصبح عندي الآن بندقية
أصبحت في قاننة الثوار
أفترش الأشواك والغبار
وألبس المنية
وأنا مع الثوار أنا مع الثوار
من يوم أن حملت بندقيتي
أبحث عن طفولتي
صارت فلسطين على أمتار
يا أيها الثوار في القدس في الخليل في بيسان في الأغوار
في بيت لحم حيث كنتنر أيها الأحرار
تقدموا... تقدموا
إلى فلسطين طريق واحد
يعر من فوهة بندقية
إلى فلسطين طريق واحد..

وقد كلفت أم كلثوم موسيقار الأجيال محمد عبدالوهاب بوضع اللحن المناسب لهذه القصيدة الوطنية.. وذلك بعد حذف واختيار واستبدال بعض الكلمات بعد استشارة مؤلفها نزار قباني. إذ اكتشفنا حين رجعنا كالعادة إلى الديوان المنشور فيه هذه القصيدة وجود تغيير ملحوظ قد حدث، وذلك حتى تتوافق الكلمات مع صوت أم كلثوم .
ومما لاحظناه في هذا السياق أن كوكب الشرق قد أهملت بعض الأبيات، واختارت البعض الآخر، فقد بدأت هذه القصيدة وفق ما سطره نزار قباني بقوله:

أريد بندقيّة

خالتر أمي بعته

من أجل بندقيّة

ويستمر نزار في كلمات هذه المقدمة على هذا المنوال حتى قوله:

قصاد الشعر التي حفظنا

ليست تساوي درهماً

أمام بندقيّة.

وقد اختارت أم كلثوم حين غنت هذه القصيدة، بداية مختلفة تماماً إذ بدأت من الجزء الثاني من القصيدة والذي تقول كلماته:

أصبح عندي الآن بندقيّة

وكذلك غيرت أم كلثوم في بعض كلمات هذا الجزء ، فاستخدمت كلمة «وطني» بدلاً من «بيتي» .. في البيت الذي يقول فيه الشاعر..

أبحث عن بيتي الذي هناك

ليس هذا فقط .. بل اتضح لنا أن أم كلثوم قد أهملت عدة أبيات من الجزء الثالث وهي التي يقول فيها نزار:

أريد أن أنبت في ترابها.. زيتونة أو حقل يرتال

أوزهرة شذية

قولوا لمن يسأل عن قضيتي

بارودتي .. صارت هي القضية

وأما بالنسبة للجزء الرابع من هذه القصيدة، فقد أهملت فيه أم كلثوم أيضاً عدة أبيات.. قالها نزار قباني في ذات القصيدة ونشرها في ديوانه المنوه عنه.

وهذه هي الأبيات:

مشينة الأقدار لاتردني

أنا الذي أغير الأقدار.

وكذلك البيت الذي يقول فيه الشاعر:

فضة السلام مسرحية

والعدل مسرحية

ولو رجعنا مرة أخرى للاطلاع على هذه التعديلات والوقوف أمامها بهدوء.. سوف نلاحظ كذلك شيئين هامين.. الأول أن أم كلثوم أرادت من وراء اختيار هذه الأبيات.. اختصار وقت غناء القصيدة. كما استهدفت من وراء ذلك أيضاً ألا تدخل نفسها في مواقف سياسية قد تجر عليها بعض المشاكل إذا ما غنت كلمات نزار قباني بلا تعديل، الذي كان يقصد من وراء ذلك وصف أوضاع بعينها سواء داخل مصر أو خارجها.

وكانت أم كلثوم في ذلك محقة كل الحق.. لأن هدفها في الأساس هو هز الوجدان العربي واستنارته للوقوف في وجه العواصف بلاخوف مستظلاً بصوتها وبحنجرتها القوية. وعلى أية حال، فقد وصلت براعة أم كلثوم في مجال اختصارها لهذه القصيدة حداً، جعلنا لم نلاحظ فيه أية خلل.. وكان ذلك دائماً هو نهجها منذ أن أقدمت على غناء القصائد العربية مع مطلع العشرينيات من هذا القرن.. وقد لمسنا ذلك نحن بالفعل.

وما حدث في القصيدة الأولى في عام، ١٩٦٩.. حدث كذلك للقصيدة الثانية التي شدت بها أم كلثوم في عام ١٩٧٠ فور رحيل الرئيس جمال عبدالناصر.. إذ غيرت أم كلثوم من اسم القصيدة وبعض كلمات في أبياتها.

وهذه القصيد التي غنتها تقول:

والدنا جمال عبد الناصر
عندى خطاب عاجل إليك
من أرض مصر الطيبة
من ليلها المشغول بالفيروز والجواهر
ومن مقاهى سيدى الحسين من حدائق القناطر
من ترع النيل التى تركتها حزينه الضفائر
عندى خطاب عاجل إليك
من الملايين التى تيمها هوالك
من الملايين التى تريد أن تراك
عندى خطاب كله أشجان
لكننى .. لكننى يا سيدى
لا أعرف العنوان.
والدنا جمال عبد الناصر
وساعة الجدار.. من ذهولها.. ضيقت الأيام
يا من سكنت الوقت والتاريخ والأيام
عندى خطاب عاجل إليك
لكننى .. لكننى يا سيدى
لا أجد السلام.. لا أجد الكلام!
والدنا جمال عبد الناصر
الحزن مرسوم على الغيوم، والأشجار، والمنابر
وأنت سافرت ولم تسافر
فأنت فى رائحة الأرض وفى تفتح الأزهار
فى صوت كل موجة، وصوت كل ثائر

فى كُتب الأطفال، فى الحروف، فى الدفاتر
فى خُصرة العيون وارتعاشة الأساور
فى صدر كل مؤمن، وسيف كل ثائر
عندى خطاب عاجل إليك
لكنى - لكنى ياسيدى
تسحبنى مشاعرى.
الزراع فى الغيطان، والأولاد فى البلد
ومولد النبى
والمأذن الزرقاه
والأجراس فى يوم الأحد
وهذه القاهرة التى غنت
كزهرة بيضاء فى شعر الأبد
يسلمون كلهم عليك
يقبلون كلهم يدك
ويسألون عنك كل قادم إلى البلد
متى تعود للبلد؟!
حمانر الأزهر، يا حبيبنا تهدي لك السلام
معديات النيل، يا حبيبنا، تهدي لك السلام
والقطن فى الحقول والنخيل والغمام
جميعها.. جميعها تهدي لك السلام
كرسيك المهجور فى منشية البكرى يبكى فارس الأحلام
والصبر لا صبر له
والنوم.. لا ينام

يا أيها المعلم الكبير.. كم حزنا كبير
كم جرحنا كبير
لكننا نسر بالله العلى القدير
أن نحبس الدموع فى الأحداق
ونخفق العبرة
نسر بالله العلى القدير
أن نحفظ الميثاق ونحفظ الثورة.
وعندما يسألنا أولادنا
من أنتم؟.. فى أى عصر عشتم؟!
فى عصر أى ملهم؟... فى عصر أى ساحر؟
نجيبهم، فى عصر عبد الناصر
الله .. ما أروعها شهادة
أن يوجد الإنسان فى زمان عبد الناصر.

وأما بالنسبة لأهم التعديلات التى أجريت من قبل أم كلثوم وملحنها الموسيقار الكبير رياض السنباطى فقد اختارت أم كلثوم عنوان «خطاب» بدلاً من العنوان الذى اختاره الشاعر وهو «رسالة إلى جمال عبدالناصر» كما أجرت بعض التعديلات على كلمات هذه القصيدة.. بما يناسب اللحن والصوت.

وقد تعمدت فى هذا السياق أن تكرر الشطر الذى بدأت به القصيدة وهو غير موجود أصلاً.. وهذا الشطر تقول فيه: «والدنا عبدالناصر» كما استبدلت كلمة «هذا خطاب» بكلمتى: «عندى خطاب».

وهذه التعديلات نفسها.. قد لفتت أنظار الصحفيين الذين تابعوا لحن هذه القصيدة.. وقد كتبوا عن ذلك فى حينه، فنشرت إحدى الصحف اليومية فى يوم ١٧ نوفمبر من عام ١٩٧٠ تحت عنوان: أم كلثوم تختزل قصيدة نزار لتذاع فى ٩ دقائق.. تقول:

اختارت أم كلثوم لأغنياتها الجديدة التى كتبها الشاعر نزار قباني اسم «خطاب» بدلاً من «رسالة إلى عبدالناصر».. كما اختصرت شطراتها لتذاع فى مدة لاتزيد عن تسع دقائق، وفى الوقت نفسه عدلت فى بعض الكلمات مثل «أدمنت هواك».. لتصبح «تيمها

هواك».. وكلمة «المنابر» بدلاً من «الستائر» «وصوت كل ثائر» بدلاً من «كل طائر»..^(١)

كما أشارت هذه الصحيفة إلى أن القصيدة من تلحين رياض السنباطى الذى أجرى سبعة عشرة بروفة لام كلثوم من قبل أن تشدوبها.

ورغم أن شاعر الحب والنساء والحرير والشباب معروف لنا جميعاً باعتباره أحد رواد الشعر الحديث فى اللغة العربية.. إلا أننا سوف نقدم عنه الشيء اليسير من لمحات حياته الخاصة والأدبية.

فقد ولد الشاعر نزار قبانى فى مدينة دمشق فى شهر مارس عام ١٩٢٢ وتخرج من كلية الحقوق ، ليشغل عدداً من المناصب الدبلوماسية فى العديد من بلاد العالم منها القاهرة وأنقرة ولندن .

بدأ نزار مشواره مع الشعر وهو فى الرابعة عشرة من عمره.. كما صدر ديوانه الأول بعنوان «قالت لى سمراء» .. فى عام ١٩٤٥ ، وكان لصدوره ثورة وضجة إذ تحدث فيه بوضوح غير مسبوق عن العلاقات الخاصة بين الرجل والمرأة.

وعندما ظهر ديوانه الثانى «طفولة نهد» حدث تغيير أساسى وواضح فى أسلوبه .. إذ تحول من الجنس إلى الحب ، وهذا اللون الجديد من الشعر تأثر به نزار قبانى عن الشاعر الفرنسى «جاك بريفير» .

وقد أتم نزار قبانى نضوجه الشعرى فى ديوان «قصائد» إذ اتجه فيه اتجاهاً موضوعياً.. مع ما تعامل به من قضايا .. من أهمها التعبير عن مأساة المرأة والجريمة .

ويؤكد الشاعر نزار القبانى أن كل قصائده مستوحاه من تجاربه الخاصة .. حيث لا يؤمن بالتجربة المستعارة . كما أكد فى سيرته الذاتية أن مهمته الأولى : «حين بدأت الكتابة أن أحرر الشعر من كل السلطات غير البشرية وعلى رأسها سلطة الملائكة وسلطة الشياطين»^(٢) .

رحل نزار قبانى عن عالمنا فى ٣٠ أبريل عام ١٩٩٨ تركاً وراءه رصيذاً كبيراً من الإنتاج الشعرى ومن الكتابات الأدبية الأخرى ، وذلك عن عمر يناهز الخامسة والسبعين إلا أشهر قليلة!..

(١) جريدة الأهرام فى ١٧/١١/١٩٧٠ .

(٢) جريدة الحياة فى ١٦/١/١٩٩٨ .

مما هو ملاحظ بشأن تعامل كوكب الشرق أم كلثوم مع شعراء القصائد العربية فى العصر الحديث.. أنها كانت تلجأ كثيراً إلى تغيير كلمات وشطرات كثيرة فى هذه القصائد!.. إلى درجة أنها كانت تلجأ أحياناً لهذا الشاعر أو ذاك لكتابة أبيات جديدة لم تكن منشورة فى ديوانه الذى نشر به هذه القصيدة! وذلك إرضاء لأم كلثوم ولملحن هذه القصائد!.

ويبدو أن ممارستها الطويلة لغناء هذه القصائد قد مكنتها من ذلك، لدرجة تمكنها من إقناع شعرائها بإجراء هذه التعديلات بلا أدنى اعتراض!.

ولانستطيع أن نقول أن سبب ذلك يرجع فقط إلى إمنية الشاعر العربى وحبه لصوت أم كلثوم . الذى سوف يساهم فى نشر كلماته ويشتهر هو نفسه من خلال حنجرتها الذهبية، وجمهورها العريض، وإن كان ذلك السبب غير بعيد عن المناقشة!

والغريب أن أم كلثوم لم تستثنى من هذه القاعدة حتى الشعراء الكبار من أمثال الأمير عبد الله الفيصل ونزار قباني!، بل والأكثر غرابة.. أننى أتصور أن هذا الشاعر أو ذاك بعدما يستمع لكلماته من صوت أم كلثوم يود أن يعيد نشر هذه القصيدة بالكلمات الجديدة فى ديوانه الذى نشرت به القصيدة من قبل إجراء هذه التعديلات!.

ويعتبر الشاعر السودانى الهادى آدم من أكثر الشعراء العرب المعاصرين الذين عاشوا هذه التجربة مع أم كلثوم .. وذلك عندما غنت له قصيدته «أغدا ألقاك» .

وقد نتعجب حين نعرف أن هذا الشاعر قد اضطر إلى تغيير أبيات بأكملها، بل وتغيير شطرات من أشعاره فى هذه القصيدة حتى تغنيها أم كلثوم. وقد جاء إلى القاهرة من أجل هذا الغرض بعدما اختارت كوكب الشرق إحدى قصائده وفق ما رواه الشاعر والكاتب الصحفى صالح جودت.

ليس هذا فقط ، بل إن لاختيار أم كلثوم هذه القصيدة بالذات قصة طريفة يرويها شاهد عيان .. كان حاضراً وقت الاتفاق على هذا الاختيار.

ففى عام ١٩٧٠ نشر الشاعر صالح جودت فى إحدى مقالاته الأسبوعية يقول : إنه بعد أن غنت أم كلثوم حفلتها فى السودان فى العام الأسبق عادت من هناك تحمل فى صدرها شحنة دافقة من الحب للسودانيين وقالت لى يومئذ: إن البلاد العربية جميعاً تعيش مع مصر فى محنة النكسة ، ولكن أعمقهم شعوراً بها هم أهل السودان . إن مستوى الألم فى النفس السودانية هو نفس مستواه فى النفس المصرية ، لقد كنت أدخل بيوتهم فأحس أنى فى بيتى وألقى بهم فأشعر بأننى بين أهلى وعشيرتى «^(١)» .

ثم أضاف فى حديثه ما يتعلق بشأن ماغنته أم كلثوم قائلاً : وسألتنى أم كلثوم كيف أستطيع أن أعلن عن حبنى لأهل السودان ، وقيل أن أجيبها قالت : بأن أغنى قصيدة للشاعر من السودان .

وكانت تلك الرغبة وفق ما رواه الشاعر صالح جودت هى الدافع الأساسى لدى أم كلثوم لكى تغنى فعلاً كلمات من إحدى قصائد أحد شعراء السودان المعاصرين .. ومن أجل هذا الغرض كلفت صالح جودت نفسه للبحث عن هذه القصيدة .. وهذا يتضح لنا مما قاله فى المقال السابق الإشارة إليه حين قال : «اتفقنا على أن نبحث عن القصيدة المنشورة ، وطفت بمكتبات القاهرة واستعنت بالأصدقاء فتجمعت لدى سبعة دواوين لسبعة شعراء ، ومضيت أدرسها ثم اخترت من كل منها قصيدة تتوفر فيها الصلاحية الغنائية . وأرسلت القصائد السبع لأم كلثوم لتفاضل بينها .

وبعد أيام سألتنى أم كلثوم أيهم أفضل قلت : لقد تركت لك مهمة المفاضلة ، حتى لا أكون منحازاً للشاعر دون آخر ، قالت : لقد اخترت واحدة منهم بالفعل ولكن لن أذكرها لك حتى أعرف رأيك ، قلت : إذا كنت تصريين فإننى أفضل قصيدة الهادى آدم فهى أصلحهم للغناء .. قالت بخفة ظالها المعهود : برافوا على أنا فهذه هى القصيدة التى اخترتها بالفعل» .

(١) الكواكب فى ٢٦ / ٥ / ١٩٧٠ .

ومن بعد هذا الاختيار شدت أم كلثوم فعلاً بكلمات هذه القصيدة بعد أن وضع لها الألمان المتميزة محمد عبد الوهاب وهي التي تقول فيها كوكب الشرق :

أغدأ لفتاك ياخوف فزادى من غد
يا لشوقى واحتراتى فى انتظار الموعد
آه كمر أخشى غدى هذا وأرجوه اقترباً
كنت أستدنيه لكن هبته لما أهابا
وأملت فرحة القرب به حين استجابا
هكذا احتمل العمر نعيباً وعذاباً
مهجة حرى وقلباً مسه الشوق فذابا
أغدأ لفتاك

أنت يا جنة حسمى واشتياقى وجنونى
أغدأ تشرق أضواؤك فى ليل عيونى
كمر أناديك وفى لحنى حنين، ودعاء
يا رجائى أنا كمر عذبنى طول الرجاء
أنت لولا أنت أنت لمر أحفل بمن راح وجاء
أنا أحيا فى غد الآن بأحلام اللقاء
فأت أولاً تات أو فأنفعل بقلبى ما نشاء
أغدأ لك

هذه الدنيا كتاب أنت فيه الفكر
هذه الدنيا عيون أنت فيها البصر
فارحر القلب الذى يصغوبك
فغدأ تتألق الجنة أنهاراً وظلاً
وغدأ ننسى فلأنسى على ماض تولى
وغدأ للحاضر الزاهر نحيا ليس إلا
قد يكون الغيب حلواً
إنما الحاضر أحلى

أغدأ لك

ولقد شدت أم كلثوم بهذه القصيدة يوم الخميس ٦ مايو عام ١٩٧١ .. كما سجلتها على أسطوانة لصوت القاهرة فى العام نفسه .

وكالعادة حين رجعنا إلى ديوان الشاعر السوداني الهادى آدم و الذى نشر به هذه القصيدة، وجدنا أن ما نشر بالديوان شيء وما غنته أم كلثوم شيء مختلف تماماً!!، حتى أنه قد خيل إلى أن الشاعر السوداني قد اضطر لإعادة صياغة كلمات هذه القصيدة من جديد! وذلك إرضاء لأم كلثوم وشهرتها العريضة.

ففى الديوان المنوه عنه والذى صدر فى عام ١٩٦٢ تحت عنوان «كوخ الأشواق» عن إحدى دور النشر السودانية بالقاهرة وجدنا أن قصيدة «أعدا ألك» عنوانها الأساسى هو «الغد»!، وأن مطلعها هو :

أعداً ألك يا لهف فزادى من غد وأحبيك ولكن بنزادى أمرىدى!

عندئذ أدركت وعلى الفور أن هناك العشرات من التعديلات التى طلبتها أم كلثوم من الشاعر الرقيق الأحاسيس.. وقد أشار صالح جودت نفسه -وهو الذى يعود إليه الفضل فى إختيارها إلى وجود هذه التعديلات - حيث قال :«وجاء الهادى آدم إلى القاهرة والتقى بأم كلثوم وكان معها محمد عبد الوهاب . وقرأوا القصيدة مرة واثنين وثلاثاً وعشراً وعدلوا وبدلوا وقدموا وأخروا ، إلى أن استقروا على الصورة النهائية لهذه القصيدة. وقد بقيت فى أدرج أم كلثوم حوالى عام قبل أن تشدو بها...!»

ومما تجدر الإشارة إليه أن كم التعديلات التى إجريت على كلمات هذه القصيدة كبير لدرجة لم نعهدها فى غيرها من القصائد التى تغنت بها أم كلثوم، وأولى هذه التعديلات كما سبق وذكرنا كان فى عنوان القصيدة نفسها ثم شمل بعد ذلك الأبيات والكثير من كلمات هذه الأبيات .

ففى البيت الأول استبدلت أم كلثوم كلة «ياخوف».. بدلاً من «يالهدف»!، كما غيرت الشطر الثانى من البيت نفسه بحيث أصبح يقول :

يا لشوقى واحترافى فى انتظار الموعد..

بدلاً من ، وأحبيك ولكن بنزادى أمرىدى!

كما أهملت أم كلثوم ثلاثة أبيات أخرى من هذه القصيدة، نشرها بالديوان على هيئة شطرات منفصلة.. وهى التى يقول فيها الشاعر السودانى :

أمر بطرف خاشع للمح كليل مجهد
لست أدرى كيف ألقاك ولكنى صدى
ظامى أرهته البين وطول الأمد

ووفقا لترتيب العام للأبيات فى هذه القصيدة المنشورة بالديوان فقد بدلت أم كلثوم فى مواقع بعض هذه الأبيات، مثال ذلك أنها قدمت الأبيات التى تقول مطلعها: «أه كم أخش غدى هذا وأرجوه اقتراباً».. على الأبيات التى تقول فى مطلعها: «أنت ياجنة حبي واشتياقى وجنونى!»!

وتزامن ذلك مع التعديل الذى أدخلته أم كلثوم على بعض كلمات هذه الأبيات.. فنراها قد اختارت كلمات: «أه كم أخشى»... بدلاً من «أنا أخشى» وكذلك: «وأهلت فرحة القرب به» بدلاً من: «وتولت الدهشة القرب».. وكلمة «أحتمل» بدلاً من «أستبطن»!

كما شهد الجزء الأخير من هذه القصيدة تغييرات كثيرة أيضاً سواء فى تغيير الكلمات نفسها أو فى إضافة أبيات جديدة كتبها الهادى آدم ولم تكن موجودة فى قصيدته المنشورة بالديوان المنوه عنه!

ففى الأبيات التى تقول فيها أم كلثوم: «هذه الدنيا كتاب أنت فيه الفكر»، كانت فى الأصل: «هذه الدنيا سماء أنت فيها القمر» كما غيرت فى البيت الثانى كلمات «عيون أنت فيها البصر»!

والملاحظة الواجب الإشارة إليها هنا أن الشاعر السودانى.. قد اضطر بالنسبة للجزء الأخير من هذه القصيدة إلى إعادة صياغته بالكامل.. حتى تقبل أم كلثوم أن تشدو بها، ولك عزيزى القارىء أن تقارن بين ما كتبه هذا الشاعر وبين ماغته أم كلثوم إذا ما رجعت لما نشير إليه حالاً بشأن ما كتبه وما نُشر فى ديوانه «كوخ الأشواق»..

والكلمات التى كتبها الهادى آدم فى هذا الديوان تقول:

وأنا ديك ولكن نداءاتى دعاء
أنا لولا أنت لمر أحفل بمن راح وجاء
وغداً لايعرف القلب لهذين محلاً
وأحببيك ولكن بفؤادى ليس.. إلا!

أنغاباك ولكن ظن كيف تشاء
يارجانى أنا وحدى أدنى منك الرجاء
فغداً لا نعرف الغيب ولاماض تولى
وغداً نضطخب الجنة أنهاراً وظلاً

إنه ولاشك مجهود كبير بذله الشاعر الهادى آدم حتى تصل كلماته إلى صوت
وحجره كوكب الشرق أم كلثوم ، وكذلك إلى آذان الملايين من عشاقها.. كما كتبت له
فى الوقت نفسه شهادة بقاء أبدى فى عالم الشهرة وعالم قصائد الشعر!

ومن أجل ذلك رأينا ضرورى أن نقدم له باقة كلمات. قد سطر بعضها عن نفسه..
واستكملنا البعض الآخر، وقد استهل ما كتبه عن نفسه فى مقدمة ديوانه «كوخ الأشواق»
بقوله : «لعل من أصعب الأشياء أن يقدم المرء نفسه بنفسه.. ولكن لا يقل عن ذلك
حرجاً أن يدع غيره يحدثه عن خلجات نفسه، وقد اخترت الأولى على الثانية، ولى من
الأصدقاء الأجلاء من يشرفنى أن يقدموا شعرى للناس فما عساي أن أقول» (١).

ومن أهم ما قيل من معلومات عن هذا الشاعر.. أن اسمه بالكامل هو الهادى آدم
الهادى.. ولد بقرية الهلالية فى عام ١٩٢٧ بمديرية النيل الأزرق بالسودان وتلقى تعليمه
الأولى بمدرسة الهلالية ثم التحق بمعهد أم درمان العلمى.. وبعد تخرجه عمل فى
الصحافة السودانية.. ثم أرسل فى بعثة دراسية إلى مصر حصل فيها على الليسانس من
كلية دار العلوم، كما حصل على دبلوم فى التربية وعلم النفس من جامعة عين شمس..
وعمل كذلك مدرساً بوزارة المعارف السودانية.. وله عدة مؤلفات فى مجال المسرح
والشعر.

(١) من مقدمة ديوان : كوخ الأشواق - الهادى آدم عام ١٩٦٢. مكتبة الكاملابى.

لأول وهلة كنت أتصور أن شاعرنا الراحل الكبير علي أحمد باكثير، والذي تغنت بكلماته سيدة القصيدة العربية أم كلثوم، ليس عربي الأصل... وذلك لكثرة ما تردد بشأن هذا الأصل، نظراً لارتباطه بمولده خارج الوطن العربي، حيث ولد في إحدى مدن إندونيسيا!

ولكن وبإجماع المصادر قديمها وجديدها، إتضح لنا أن علي أحمد باكثير الذي عرفناه كاتباً مسرحياً وروائياً إنما هو شاعر كبير من اليمن وقد رحلت أسرته من مدينة حضرموت من أجل التجارة، واستقرت لسنوات بعينها والتي ولد خلالها.. في إحدى مدن إندونيسيا!

ورغم أن علي أحمد باكثير قد ولد فعلاً بمدينة «سور أبايا» الأندونيسية إلا أن ولاءه وثقافته وفكره وإنتاجه ظل مرتبطاً بالعالم العربي وببلاده اليمن السعيد، بل وأن هناك من المصادر التي تؤكد أن علي باكثير قد ولد في مدينة حضرموت نفسها.. ثم رحل مع أسرته إلى موطنه الجديد بأندونيسيا.

ولقد شاء حظ هذا الأديب العربي البارع أن ينضم إلى قافلة الشعراء العرب من الذين تغنت بكلماتهم سيدة الغناء العربي أم كلثوم، بل وكانت قصته المشهورة «سلامة القس»، هي أحد أفلام سيدة الغناء العربي التي مثلته في عام ١٩٤٤!! وهو الفيلم الذي غنت فيه سبع قصائد عربية بالإضافة إلى كلمات علي أحمد باكثير نفسه التي يقول فيها:

قالوا أحب النفس .. سلامة	وهو التنقى الورع الطامر
كأنما لم يدرك الهوى	والحب إلا الرجل الفاجر
يا قوم انى بشر مثلكم	وفاطرى ربكم الفاطر
لى كبد تهفر كأكبادكم	ولى فؤاد مثلكم شاعر

وقد غير أم كلثوم في بعض كلمات هذه الأبيات بما يتفق مع الألحان التي وضعها الموسيقار رياض السنباطي.. ومن هذه التعديلات ما جاء في البيت الأول.. إذ غيرت أم

كلثوم كلمة «الناسك» واختارت بدلاً منها.. كلمة «الورع».. كذلك غيرت في كلمات البيت الثاني.. فأصبح:

كأنما لم يدر طعم الهوى والحب إلا الرجل الفاجر

بدلاً من:

كأنما لم يدر قلبى الهوى إلا الغوى الفاتك الفاجر!

وعلى الرغم من قلة ماغنته أم كلثوم للشاعر والأديب اليمنى على أحمد باكثير إلا أنها ما زالت تحظى باهتمام قطاع عريض من المستمعين من عشاق صوت وفن أم كلثوم، وربما يكون السبب في ذلك أنها قد ارتبطت بأحد أدوارها السينمائية المشهورة.

ولذلك كان لزاماً علينا ضرورة البحث في شأن هذه الأبيات وبيان موقعها من إنتاج على أحمد باكثير سواء ما نشر له في بعض الدواوين أو في أعماله الأدبية الأخرى..

ولقد كانت مفاجأة على الأقل لى شخصياً.. أن أعثر على هذه الأبيات ليس في ديوان شعر.. ولكن في إحدى أعماله الروائية التي صدرت في عام ١٩٤٤ تحت عنوانه: «سلامة القس».

هذه الرواية التي نشرتها لجنة النشر للجامعيين بعد فوزها بإحدى الجوائز الأدبية وهي جائزة «قوت القلوب».. وكما جاء على غلاف هذه الرواية.

بل والأكثر من ذلك مفاجأة أن هذه الأبيات كتبها الشاعر على أحمد باكثير على لسان بطل الرواية عبدالرحمن بن عماد.. وأخذت ترددها سلامة بعدما وضعت لها الألحان حتى خيل إلينا أن الشاعر باكثير قد نقلها عن آخرين. لكى توافق أحداث روايته الدرامية التاريخية.. ولكن اتضح لنا عكس ذلك أيضاً.. إذ عثرنا على بعض الأدلة التي تثبت أن هذه الأبيات هي من تأليف على أحمد باكثير نفسه.

ولعلنا هنا ننقل جزءاً من الحوار الذى دار بشأن هذه الأبيات - فى الرواية التى كتبها على أحمد باكثير ونقلها إلى السينما بنفس أحداثها تقريباً.

«طفق عبد الرحمن يبكى وهو يمسخ دموعه.. حسبك يا سلامة حسبك» لكأنى والله لم أقل هذه الأبيات.. لقد كسوتها بتلحينك روحاً لم تكن.. فقالت سلامة: إنما أعجبنى شعرك فألهمنى هذا التلحين»^(١).

وبطبيعة الحال فإن هذا اللحن لم تأخذ به أم كلثوم.. بل عهدت بهذا اللحن إلى موسيقارها المفضل آنذاك وهو رياض السنباطى.. الذى أبدع فى تلحينها إبداعه فى غيرها من القصائد!

(١) رواية سلامة القس - ص ٦٥ تأليف على أحمد باكثير وصدرت فى عام ١٩٤٤.

وفيما يتعلق بتأليف على أحمد باكثير لهذه الأبيات.. وسبب استعانه بالشعر في سياق أحداث أعماله الروائية . يقول الدكتور عبده بدوى محلاً هذه الظاهرة :«إن انتاجه الغزير يؤكد أن شكل القصيدة الغنائية بصفة خاصة كان أثيراً عنده.. وأنه كان من خلاله يقول الكثير .. بل إنه في أعماله النثرية كان ينتهز الفرصة ليضع الشعر على لسان أبطاله .. وما أكثر ما تظهر شخصية الشاعر في العديد من أعماله ، وهو يضعها في الغالب في دائرة الحق والنور ، وقليلاً ما يضعها في دائرة التأمّر والإدانة^(١) .

هذا عن القصيدة .. فما لنا بالمؤلف نفسه، وقد تعودنا أن نعيش لو للحظات مع بعض نحات من سيرته الذاتية التي نستكمل بها هذا المشوار القصير ..
ومما لاحظناه أن سيرة حياة على أحمد باكثير قد حفلت بها العديد من الكتب وكذلك الكثير من الأبحاث والدراسات، لكننا هنا سوف نورد فقط بعضاً منها . خاصة فيما يتعلق بحياته ونشأته وأعماله الأدبية .

فقد ولد على أحمد باكثير في عام ١٩١٠ بمدينة «سورا بايا» باندونيسيا .. ولكنه سرعان ما عاد إلى بلده حضرموت باليمن - وذلك كعادة «أهل حضرموت في إرسال أبنائهم إلى موطنهم الأصلي وهم صغار ليعيشوا في بلادهم لغة وعادات هذا الوطن .
وفي حضرموت موطن والديه عاش في مناخ إسلامي ساهم في إقباله على حفظ القرآن الكريم ، والإطلاع على العديد من كتب التراث .

وفي هذا الجو وجد نفسه يدندن بالشعر مبكراً فحاول دخول عالمه الساحر العجيب ، وكانت مشكلات مجتمعه آنذاك هي المجال الخصب لأشعاره المبكرة هذه ، كذلك تأثر في هذه الفترة المبكرة من حياة بالشاعرين العربيين الكبيرين المتنبي وشوقي .

وهناك من المصادر التي روت بعض نحات من حياته والتي تؤكد أن على أحمد باكثير عاد من جديد إلى موطن والديه الجديد في أندونيسيا حيث راح ينمي مواهبه فأتم حفظ القرآن الكريم وأتقن اللغة الإنجليزية حتى تفوق فيها، كما تزوج أيضاً هناك، وعاش حياة أسرية سعيدة مع شريكه حياته، ولكن القدر فجعه فيها فلم يعد يطيق العيش بدونها حيث هو.. فرحل إلى الحجاز في عام ١٩٣٢ وطاف في طريق إليها باليمن والحبشة والصومال ...

(١) قضايا حول الشعر.. ج (١) - تأليف الدكتور عبده بدوى - من إصدارات الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وفي الطائف أقام فترة هناك مارس فيها هوايته الأدبية فكان من نتاجها الأول... أولى مسرحياته «همام أو في بلاد الأحقاف»، وفي عام ١٩٣٤ رحل إلى القاهرة والتحق بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية.. (١).

وفي مدينة القاهرة توجهت مواهبه الأدبية حتى صارت له مكانته المرموقة في أوساطها الأدبية. خاصة عندما ترجم مسرحية شكسبير «روميو وجوليت».. وكانت تلك أولى خطواته في الشعر المرسل.

ومما يروى في سيرة حياته أنه عمل بالتدريس في مدرسة الرشاد الثانوية بالمنصورة عام ١٩٤٠... وفي عام ١٩٥٥ ترك التدريس وعمل بوزارة الثقافة. وكانت آخر مناصبه الوظيفية.. مدير المكتب الفني للرقابة على المصنفات الفنية حتى توفاه الله في العاشر من شهر نوفمبر عام ١٩٦٩.

وقد أطلق عليه النقاد لقب أديب العروبة والإسلام، ولعل أشهر أعماله الأدبية في هذا السياق روايته «وإسلاماه». ومن أشهر سمات أعماله الأدبية أنه كان يستهلها جميعاً بأيات الذكر الحكيم.

(١) من أدباء الإسلام المعاصرين - على الجمبلاطي.

أحمد العدواني

شاعر من الكويت

٥

لو أننا استعرضنا سوياً خريطة ملونة للعالم العربي... وذلك لتحديد موقع كل دولة عربية من الدول التي اختارت منها أم كلثوم شعرائها، لاكتشفنا حقيقة في غاية الأهمية.. مؤداها أن سيدة القصيدة العربية حققت مانسميه بالوحدة الفنية والأدبية بين شعوب هذه الدول، إضافة لماحقفته على مدى مشوارها الفني الطويل من وحدة من نوع خاص بين أبناء هذه الدول الذين كانوا يجتمعون لسماع صوتها ليلة كل خميس من أول كل شهر!

مما يعنى أن هذه الفنانة العظيمة كانت بالفعل فنانة غير مسبوقة لا في عصرها ولا في العصور التالية!، إذ كان هدفها الأول هو خلق نوع من التوافق في الذوق وفي المشاعر والأحاسيس بين أبناء الوطن الواحد مستخدمة في ذلك أدوات لم يفتن إليها غيرها!

وإذا ما نظرنا في هذا السياق لاختيارها للكلمات شاعر الكويت الراحل الكبير أحمد العدواني، سوف نضع أيدينا على بعض هذه الأدوات، والتي كان في مقدمتها المشاركة في إحياء المشاعر الوطنية لأبناء البلاد العربية.. ليس فقط برسائل التهاني وباقات الورود بل بترديد كلمات تعبر عن نبض هذا الشعب أو ذاك!

وتجربتها الحوية مع كلمات الشاعر أحمد العدواني.. تثبت ذلك وأكثر.. إذ بادرت أم كلثوم من تلقاء نفسها بطلب كلمات لأحد شعراء دولة الكويت لكي تتغنى بها لمشاركة هذا البلد العربي الشقيق في الاحتفال بعيد استقلاله الأول.

وهكذا خلقت تجربتها مع كلمات الشاعر أحمد العدواني في عام ١٩٦٠ وقصيدته الأولى «يادارنا يادار» والتي تقول كلماتها:

يامنيت الأحرار	يادرننا يادار
جبين المنى	بانجمة للسنا على
غنى لنا الأشعار	السحر مادنا
والدرفى بحرهما	التبرفى برهما

والحب فى صدرها	نبع من الأيثار
بانفحة من أريج	مست عروس الخليج
فجر وروض بهيج	ما أسعد الأطيّار
نعمر عشقنا ثراه	نعمر وعشنا فداه
وكلنا فى هواه	سامى الحمى والجار
قالوا الكويت استقل	وبلداه قد كمل
اليوم نلنا الأمل	ودانست الأقدار
فى ظل شمس الصباح	زعيمننا للكنفاح
إلى مراقى النجاح	أميرنا المغرور

ولقد نشر الشاعر الكويت أحمد العدواني هذه القصيدة فى أحد دواوينه والتي صدرت مؤخراً ضمن أعماله الأدبية الكاملة من بعد رحيله.. ولاحظنا فيها كذلك وجود بعض التعديلات التى أدخلتها أم كلثوم حتى تتوافق مع الأخان.. وقد انصبت تلك التعديلات على إغفال بعض الأبيات بغرض الاختصار.. كما اتضح لنا أن أم كلثوم والملحن رياض السباطى فى هذه التعديلات قد أغفلوا تكرار البيت الذى يقول فيه الشاعر:

يادارنا يادار يامنيت الأحرار

وذلك وفق ماجاء بالقصيدة الأصلية المنشورة بالدويان .

وبخلاف ذلك اختارت أم كلثوم أربعة عشرة بيتاً فقط.. وبالتالي أغفلت حوالى ثلاثة عشرة بيتاً، كما جاء اختيارها لهذه الأبيات بشكل عشوائى دون مراعاة لترتيب القصيدة. وجاء فى مطلع الأبيات التى أغفلتها أم كلثوم:

فيها تراك الحدود مواكب للخلود!

وفى ختامها قال الشاعر أحمد العدواني:

فجر وروض بهيج ما أسعد الأطيّار

وأما أشهر الأبيات التى غنتها أم كلثوم والتي شملها تعديل فى بعض كلماتها.. فهى الأبيات التى تقول فيها:

نعمر عشقنا ثراه نعمر وعشنا فداه

وكلنا فى هواه سامى الحمى والجار

وقد استبدلت أم كلثوم بذلك كلمات الشاعر.. الذى كتب يقول:

نعم عشقنا ثراك نعم وعشنا فدالك!

وكذلك البيتين التى تقول فيهما أم كلثوم:

قالوا الكويت استنقل وبدرة قد كمل
اليوم نلنا الأمل ودانت الأقدار

فقد استبدلت قول الشاعر خاصة فى الشطر الثانى من البيت الأول، «فقلت
بدر كمل».. أما فى البيت الثانى فكان التعديل أكثر حيث كتب الشاعر يقول:

اليوم طاب العمل وطابت الأخطار

وفى عام ١٩٦٦ كررت أم كلثوم تجربة غناء إحدى قصائد الشاعر الكويتى الراحل
أحمد العدواني.. وهى أيضاً أغنية وطنية سجلتها لإذاعة الكويت فى العام نفسه، بعنوان:
«أرض الجدود».

وتقول فيها:

شاد لك الحمد وغنى الظفر
أرض الجدود واللىالى سير
قالوا الكويت قلت هذا كوكب
العزفى ساحاته منابت
أرض الجدود لا برحت للهوى
عشنا على ثراك يدعوننا له
وذكريات كلما طافت بنا
قل للكويت تلك أعراس المنى
صحائف التاريخ رقت حوله
ما أعظم الدستور فى ظلاله
فانده إلى العلاء أميرة
شيخ الأمور ما غدت مظلمة
العزم والقوة فى رده
شاد على الحب أساس حكمه

فاختال بدو وتباهى حضر
ما أشرفت إلا عليك الديبر
تهفوله النجوم حين تنظر
طابت مجانبها وطاب الشجر
منازلاً يخطر فيها القمر
هوى على نفوسنا منقدر
تنفس السورد وفاح العنبر
يزفها إليك عهد ناضر
تكتب للخلود ما يقرر
شعب على أقداره يسيطر
أكرم بمن يفوده ويأمر
إلا جلاها منه رأى نير
تزينها الحكمة والتبصر
والحب للحكر الكريم مصدر

وبالرجوع إلى الديوان الذى نشرت به هذه القصيدة لاحظنا أن ما شهدته من تعديلات يُعد طفيفاً جداً بالقياس لما شهدته القصيدة السابقة.. ولانعرف السبب وراء ذلك!

وقد يكون لتدخل الشاعر هذه المرة رأى فى عدم الأكتثار من التعديلات .. حتى أن عدد أبيات هذه القصيدة تم الالتزام به من جانب أم كلثوم وملحنها رياض السنباطى ، ما عدا بيت واحد فقط.. وهو البيت الذى نشره المؤلف فى ديوانه وجاء ترتيبه قبل الأخير.. والذى قال فيه:

يمر بالخطب العبوس باسماً كالبلدر فى غيب الدياجى يسفر

وقد أهملته أم كلثوم.. ربما لكلماته غير المتفائلة والتي تشير إليها.. بخلاف ما جاء فى كل أبيات هذه القصيدة..

ومن التغييرات الطفيفة الأخرى التى شهدتها أبيات هذه القصيدة .. اختيار أم كلثوم لكلمة «ما أشرفت» .. بدلاً من «هل أشرفت».. فى البيت الثانى .. وكذلك اختيارها لكلمة «هذا كوكب» بدلاً من «ذاك كوكب»! فى البيت الثالث ، أما فى البيت الثامن فقد غيرت أم كلثوم كلمة «ناصر» بدلاً من «نضر»!

ونستطيع أن نقول فى السياق نفسه أن قصيدة الشاعر الكويتى أحمد العدوانى تعتبر بحق من أكثر القصائد العربية لشعراء العصر الحديث التى لم يشملها تغيير كبير.

هذا عن القصيدتين وما جرى لهما من تعديل .. فماذا عن الشاعر أحمد العدوانى؟ إننا سوف نحاول الاقتراب من حياته ومن عالمه الشعرى من واقع ما سطره عنه المؤرخون والنقاد.

فقد ولد الشاعر الكويتى بمدينة الكويت، وفيها تلقى تعليمه الأولى ، ثم انتقل إلى مصر والتحق بالأزهر الشريف فى عام ١٩٣٩. ثم عاد مرة أخرى إلى الكويت بعد إتمام دراسته بالأزهر فى عام ١٩٤٩... وهناك اشتغل بالتدريس فى المدرسة القبلية ثم فى مدرسة ثانوية الشويخ، والتي ظل يعمل بها فى عام ١٩٥٦، حتى نقل إلى وظيفة السكرتير العام لإدارة المعارف بالكويت .

وعندما استقلت دولة الكويت صدر مرسوم أميرى بترقية الشاعر أحمد العدواني إلى وكيل مساعد إدارة التربية، وقد ظل بهذا المنصب حتى عام ١٩٦٥ .. حيث نقل بعدها إلى وزارة الإعلام.

وشارك الشاعر الكويتى طوال مشوار حياته فى تدريس اللغة العربية لسنوات عديدة .. كما شارك فى تأليف عدة كتب مدرسية .. وبانتقال الشاعر أحمد العدواني من وزارة المعارف إلى وزارة الإرشاد بدأت مرحلة جديدة فى حياته خاصة الثقافية والأدبية.

وأما عن دوره فى حركة الشعر العربى .. فيقول عنه صدقى خطاب الذى أعد دراسة هامة عن مسيرة الشاعر الكويتى الأدبية : إن أهم أعماله الأدبية هى ديوان شعر «أجنحة عاصفة» الذى صدر فى عام ١٩٨٠ ونشر به كل أشعاره التى ألفها ما بين عامى ١٩٤٦ و١٩٦٠ .. توفي الشاعر أحمد العدواني فى عام ١٩٩٠ (١).

(١) العدواني .. كاتباً ورائداً - مؤسسة عبدالعزيز البابطين.

بعد طول بحث استغرق أياماً وأسابيعاً وشهوراً، عن أصل قصيدة «هذه ليلتي» .. التي شددت بها أم كلثوم في عام ١٩٦٨ .. للشاعر اللبناني جورج جرداق .. لم نوفق في العثور على هذا الأصل في كل ما كتب ونشره هذا الشاعر على مدى حياته كلها سواء الأدبية أو الصحفية، مما جعلني أعيد البحث بكل ما أوتيت من قوة وصبر - لأجل الوصول إلى الشاعر نفسه والذي يعيش بيننا - ولكن على بعد آلاف الأميال !.

ولم يكن أمامي من وسيلة مضمونه، للوصول إلى ما أبعيه سوى السفر إلى لبنان للقاء جورج جرداق .. أو الاتصال بمنزله تليفونياً، ولقد لعب الحظ دوره الكبير في العثور فعلاً على رقم هاتفه الشخصي في مدينة بيروت !، وبالفعل جريت هذه الوسيلة حيث جاء صوته عبر الهاتف، وبعد كلمات قصيرة شملها التعارف بيننا سألته مباشرة عن الديوان الذي نشر به قصيدته «هذه ليلتي» !، وكانت المفاجأة حين أخبرني أنه لم ينشرها في ديوانه، أو في أى مكان آخر إلا عندما شددت بها أم كلثوم عام ١٩٦٨ . عندئذ سألته عن أهم التعديلات التي طلبتها أم كلثوم آنذاك .. فأخبرني بها - وقال إنها فقط في البيت الأول الذي تم تغييره بناء على رغبة كوكب الشرق أم كلثوم . وانتهت المسكاملة التليفونية - وعرفت بالفعل الكلمات التي أجريت عليها التعديلات . ولسوف أسوقها .. بعد ما نعرف . كيف تم اللقاء بين هذا الشاعر وبين أم كلثوم !؟

ففي عام ١٩٦٨ وفي شهر ديسمبر بالتحديد، وفي الحفل الذي أقامته سيدة القصيدة العربية يوم ٦ ديسمبر .. طلعت علينا أم كلثوم برائعة جورج جرداق «هذه ليلتي» التي وضع لها الألمان الموسيقار محمد عبد الوهاب

وقد قيل آنذاك أن هذه القصيدة .. عرضها محمد عبد الوهاب على أم كلثوم في صيف عام ١٩٦٧ . ولكن نظراً لوقوع نكسة يونية في العام نفسه ظلت حبيسة الأدراج حتى نهاية عام ١٩٦٨ ..

وفي الفترة التي سبقت الإعداد لهذه الأغنية، طلعت علينا صحف هذه الأيام بتفاصيل كثيرة عن القصيدة وعن مؤلفها وعن الظروف التي تمت خلالها لقاءات الشاعر بأم كلثوم، فقد كتب الناقد الفني آنذاك محمد وجدى قنديل « في مجلة آخر ساعة، رداً على سؤال طرحه هو نفسه عن كيفية اختيار أم كلثوم لهذه القصيدة: «والقصة لها جذور أخرى تمتد إلى صيف عام ١٩٦٧ عندما كان عبدالوهاب . في لبنان، وكان يبحث عن شيء جديد يغنيه بصوته والتقطت أذنه المرهفة كلمات ناعمة ورقيقة يرددها صديقه الشاعر اللبناني جورج جرداق . وكعادته حينما يستوقف حاسته الموسيقية كلمة أو نغم، وقد طلب من صديقه أن يكرر تلك الكلمات هو يهز رأسه في إعجاب وشجن» .

ولقد أكد جورج جرداق هذا الأمر في أكثر من حديث صحف أجرى معه في الفترة نفسها، حيث قال رداً على سؤال : كيف أعجب عبد الوهاب بقصيدتك؟! طلب عبدالوهاب قصيدة يلحنها لكوكب الشرق، وكنا نجلس في لبنان على شرفة «إمبا سادور» أمام وادي لامارتين الشاعر الفرنسي المشهور، وأخذت أذندن بأبيات «هذه ليلتي» فقال لي: كمان يا حبيبي كمان.. ثم حدث بعدها أكثر من اجتماع ثلاثي بيني وبين أم كلثوم وعبدالوهاب..»

هذا عن ظروف اللقاء الذي تم فعلاً بين الشاعر وبين أم كلثوم بواسطة محمد عبدالوهاب.. فماذا عن القصيدة نفسها وأهم التعديلات التي أدخلت عليها؟! إن كتاب سجل أغنيات أم كلثوم قد نشر لنا هذه القصيدة كما شددت بها كوكب الشرق ونحن هنا نقلها من ذلك السجل المطبوع، حيث تقول كلماتها:

هذه ليلتي وحلم حياتي	بين ماض من الزمان وأت
الهنوى أنت كله والأمانى	فاملأ الكأس بالغمام وهات
بعد حين يبدل الحب داراً	والعصافير تهجر الأوطار
وديَار كانت قديماً ديَارا	ستراناً كمان نراها قفارا
سوف تلهوينا الحياة وتسخر	فتعالى أحبك الآن أكثر
والمساء الذى تهادى إلينا	ثم أضغى والحب فى مقلبتنا

وحديث يلذوب في شفتينا
 ليلمر الأشواق عن أجفاني
 ثم أغمض عينيك حتى تراني
 فكثير اللقاء كان قليلاً
 لو حملنا الأيام في راحتينا
 وأتاحت لفاءنا فالنتينا
 ضاع فيها الجداق والملاح
 كل ليل إذا التفتنا صباح
 وغريباً مسافراً بفؤادي
 حلر أثر الهوى أن يطيله
 أرشك الصمت حولنا أن يقوله
 ومُننى خاطري وبهجة أنسى
 وغدى في هواك يسبق أمس
 والنواسي عانق الأيام
 وأحبوا واسكروا الأيام
 إن غلدونا وصبحة ومساء
 نحن ليل الهوى ونحن ضحاه
 هذه ليلتي فنف يا زمان

لسؤال عن الهوى وجواب
 قد أطل الوقوف حين دعاني
 فادن منى وخذ إليك حناني
 وليكن ليلنا طويلاً طويلاً
 يا حبيبي طال الهوى ما علينا
 صدفة أهدت الوجود إلينا
 في بحارتنا فيها الرياح
 كمر أذل الفراق منا لقاء
 يا حبيباً قد طال فيه سهادي
 سهر الشوق في العيون الجميلة
 وحديث في الحب إن لم نقله
 يا حبيبي وأنت خمري وكأسي
 فيك صمتي وفيك نطقي وهمسي
 هل في ليلتي خيال الندامي
 وتساقوا من خاطري الأحلام
 رب من أين للزمان صباح
 لن يرى الحب بعدنا من حداث
 ملء قلبي شوق وملء كياني

ومن أهم ما أجراه الشاعر جورج جرداق على كلمات هذه القصيدة كما أخبرنا في
 الاتصال الهاتفي .. وكما أسلفنا من قبل .. قوله في البيت الأول :

هذه ليلتي .. وهذا العود بث فيه من سحر داود.

وقد أصبح بعد التعديل الذي طلبته أم كلثوم :

هذه ليلتي ... وحلم حياتي بين ماض من الزمان وأت

وكانت صحف هذه الأيام قد أشارت إلى قيام جورج جرداق بإجراء هذا التعديل دون
 أن تشير إليه .. نظراً لحرص الشاعر على عدم الإفصاح عنه .

ومما ذكرته هذه الصحف.. أن أم كلثوم قد أبدت بعض ملاحظاتها من وجهة نظرها على بعض كلمات القصيدة بعد أن عرضها عليها محمد عبدالوهاب.. مما جعله يتصل بالشاعر جورج جرداق لكي يحضر إلى القاهرة.. لإجراء التعديلات المطلوبة.. كما نشرت صحف هذه الأيام الأبيات التي قام بتعديلها جورج جرداق..، وجاءت هذه التعديلات مطابقة لما أبلغنا به الشاعر اللبناني في الاتصال التليفوني السابق الإشارة إليه..

وكان علينا وحتى تكتمل الفائدة.. ضرورة الوقوف على بعض الذي نُشر عن شاعرنا صاحب كلمات قصيدة «هذه ليلتي».. ولقد اكتشفنا أن جورج جرداق قد أملاه بنفسه.. لتنتشر في «موسوعة شعراء العرب الحديثة»..

ومما جاء في هذه الموسوعة عن الشاعر اللبناني: أن اسمه بالكامل جورج سمعان جرداق.. من مواليد عام ١٩٣١ في مرجعيون التي درس بها اللغتين العربية والفرنسية، ثم إنتقل إلى بيروت ليكمل دراسته في الكلية البطريركية، وقد عمل بعد تخرجه في سلك التعليم ثم في الصحافة. كما كتب ألوانا عديدة من الأدب.. منها المسرح والقصة، كما كتب أكثر من ٥٠ قصيدة تغنى بها كبار المطربين والمطربات.

ومن أهم أعماله الشعرية: ديوان أنا شرقية - بوهيمية - آلهة الأولمبي وقصائد حب.. كما نشرت له عدة أعمال أدبية وفكرية أخرى من أهمها: كتابه «على وحقوق الإنسان» و«العرب والإسلام» - «في الشعر الأوروبي». كما أن له عدة دراسات.. كتبت بالفارسية والعربية.

محمد إقبال

شاعر من باكستان

٧

رغم أن إقدام سيدة القصيدة العربية أم كلثوم على غناء كلمات من قصيدتين كبيرتين للشاعر الباكستاني محمد إقبال، قد تم تكريماً له في الاحتفال الذي إقامته بلاده في ذكره في عام ١٩٦٧.. إلا أن قيام أم كلثوم بهذه الخطوة يعد في حد ذاته إتماماً للخطوات السابقة التي خطتها بفهم عميق: خاصة في مجال القصائد العربية.

هذه الخطوة المهمة التي تمثلت في واقع الأمر في فتح باب التعامل بالنسبة لصوتها مع شعراء من خارج البلدان العربية، وكان الفيلسوف الباكستاني محمد إقبال على رأس هؤلاء الشعراء من الذين تعاملت مع كلماتهم أم كلثوم! في العصر الحديث، حيث لم تكن هذه هي التجربة الأولى لكوكب الشرق بل سبقتها تجربة أخرى ولكن في مجال شعر التراث.. إذ تغنت بكلمات إحدى قصائد الشاعر الفارسي المشهور عمر الخيام.. من بعد ترجمتها إلى العربية.

ولكن من أهم مالا حظناه هنا خاصة بالنسبة لعامل الاختلاف هو أن أم كلثوم قد احتفظت باسم الشاعر الفارسي عمر الخيام مقروناً باسم المترجم وهو الشاعر أحمد رامى، وأما في حالة محمد إقبال فقد احتفظت أم كلثوم فقط باسم المؤلف الأصلي لما تغنت به.. وأهملت اسم المترجم!!

وقد كتبت الأولى بالفارسية وكتبت الثانية بالأوردية، وجاء هذا الاكتشاف مواكباً لرجوعنا إلى كل ما كتب محمد إقبال سواء إلى أعماله الكاملة أو المنقول عنها مختارات مترجمة إلى اللغة العربية!

ففي كتاب «إيوان إقبال». والذي صدر بمناسبة الاحتفال بذكرى رحيله.. عثرنا على القصيدتين اللتين إختارت منهما أم كلثوم كلمات إغيتها «حديث الروح».. وقد أعد هذا الكتاب مترجماً إلى العربية الأديب الصاوي شعلان.

ولقد رأينا من قبيل الإفصاح عن المزيد عن هذه المفارقات ضرورة اتباع المنهج نفسه

والذى يلزمنا أولاً بالحديث عن أغنية أم كلثوم.. ثم مضاهات كلمات ماتغنت به بما كتبه ونشره الشاعر فى ديوانه .

فى أول حفل غنائى تقيمه أم كلثوم من بعد وفاة الملحن الكبير محمد القصبجى وفى ٧ أبريل من عام ١٩٦٧.. غنت كوكب الشرق قصيدة «حديث الروح» للشاعر الباكستانى الفيلسوف الدكتور محمد إقبال . وهى مكونة من سبعة مقاطع كبيرة وكل مقطع منها تتراوح أبياته عددا ما بين أربعة وخمسة أبيات ..

وتقول كلمات هذه القصيدة

وتدركه القلوب بلا عناء
وشق أنينه صدر الفضا
جرت فى لفظه لغة السماء
حديثا كان علوى النداء
أهاج العالم الأعلى بكائى

حديث الروح للأرواح يسرى
هتفت به فطار بلا جناح
ومعدنه ترابى ولكن
لقد فاضت دموع العشق منى
فحلق فى ربا الأفلاك حتى

بقرب العرش موصول الدعاء
سرى بين الكواكب فى خفاء
يواصل شدوا عند المساء
وما أحراه عنلى بالوفاء

نحاورت النجوم وقلن صوت
وجاوبت المجرة على طيناً
وقال البدر هذا قلب شاك
ولم يعرف سوى رضوان صوتى

ونجوم ليلى حسدى أمر عودى
قطع الزمان طريق أمسى عن غدى
تبكى الربى بأنينها المتجدد
مدامعى كالطل فى الغصن الندى
خرساء لم ترزق براعة منشد

شكواى أمر نجواى فى هذا الدجى
أمسيت فى الماضى أعيش كأفا
والطير صلاحة على أناتها
قد طال تسهيدى وطال نشيدها
فبالى منى صمتى كائى زهرة

لابد للمكبوت من فيضان
ليبين عنهما نطقى ولسانى
لكنها هى قصة الأشجان

فيثارتى ملئت بأنات الجوى
صعدت إلى شفتى خواطر مهجتى
أنا ما تعديت القناعة والرضا

يشكرك لك اللهم قلب لربيعش

إلا الحمد علاك فى الأكوان

من كان يهتف بأسر ذاتك قبلنا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالة
هل أعلن التوحيد داع قبلنا
ندعو جهاراً لا إله سوى الذى

من كان يدعو الواحد القهارا
لرب بلغوا من هديها أنوارا
وهدى القلوب إليك والأنظارا
صنع الوجود وقدر الأقدارا

إذا الإيمان ضاع فلا أمان
ومن رضى الحياة بغير دين
وفى التوحيد لله من اتحاد

ولا دنيا لمن لربحى ديننا
فقد جعل الفناء لها قريناً
ولن تبنوا العلامتفرقينا

ألربيعش لأنك رنبى
ومصحنك وقبلنك رجميعاً
وفوق الكل رحمن رحيم

بوحدهم على نهج الونام
منار للأخوة والسلام
إله واحد رب الأنام

وفى الكتاب المشار إليه آنفاً والذى ترجمه الأديب الشيخ «الصاوى شعلان» عثرنا على هذه الكلمات وقد اختارتها أم كلثوم من قصيدتين نشرهما الشاعر محمد إقبال فى ديوانه «صلصلة الجرس».. القصيدة الأولى نشرت تحت عنوان: «شكوت إلى الله» - والثانية تحت عنوان «جواب الشكوى»..

ومما لاحظناه هنا أن أم كلثوم حين اختارت هذه الكلمات، بدأت ما غنته بأبيات الجزء الثانى من هذه القصيدة والذى نشره الشاعر تحت عنوان: «جواب الشكوى»!! وهو الذى يقول فيه:

كلام الروح للأرواح يسرى وتدركه القلوب بلا عناء

ولقد استبدلت أم كلثوم وكما هو ملاحظ كلمة «حديث».. بدلاً من «كلام» كما اتخذت من هذه الكلمة نفسها عنواناً القصيدة، وكذلك التزمت بعدد أبيات ما بها من مقاطع - فجاء المقطع الأول يحتوى على خمسة أبيات وقد غنتهم أم كلثوم جميعها بلا تغيير إلا فى كلمة واحدة سبق الإشارة إليها.

وأما بالنسبة للمقطع الثانى والذى بدأه الشاعر بقوله :

تحاورت النجوم وقلن صوت

يقرب العرش موصل الدعاء

فقد حذفته منه أم كلثوم البيت الذى يقول فيه محمد إقبال :

ألم أركب قبل فى جنات عدن فأخرجنى إلى حين قضائى.

ثم توالت بعد ذلك التعديلات الكبيرة فى هذا الجزء من القصيدة .. على خلاف ما كتبه الشاعر إقبال .. إذ أهملت أم كلثوم خمسة مقاطع منها، ومن المقطع السادس اختارت ثلاثة أبيات فقط وهى التى تقول فى بدايتها:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان

ولا دنيا لمن لريحى دينا

وقد وضعت أبيات هذا المقطع وفق الترتيب العام لما غنته فى المقطع قبل الأخير.. كما أهملت بيتين كتبهما المؤلف فى المقطع نفسه وهما اللذان يقول فيهما محمد إقبال:

لقد ذهب الرفاء فلا رفاء وكيف ينال عهدى الظالمينا
تساندت الكواكب فاستقرت ولولا الجاذبية مابقينا

ثم أهملت كوكب الشرق ثلاثة مقاطع أخرى... ومن المقطع العاشر.. اختارت ثلاثة أبيات اختتمت بها ما غنته من كلمات..

هذا بالنسبة لما حدث للقصيدة الأولى .. أما القصيدة الثانية التى نشرت بالديوان تحت عنوان: « الشكوى إلى الله » ، فقد اختارت منها أم كلثوم عدة أبيات ضمنها عدة مقاطع، لكن الملاحظ فى هذا الجزء أنها حافظت على الترتيب العام الذى ارتضاه الشاعر، مع إضافة بعض التعديلات التى أدخلتها على الكلمات حتى تتوافق مع الألحان.

وكلمات هذا الجزء من القصيدة الثانية فهو الذى يبدأ بقول الشاعر :

شكراى أمرنجواى فى هذا الدجى

ونجوم ليل حسدى أمر عودى

وفى المقطع الثانى من القصيدة والذى احتل المقطع الرابع فيما غنته أم كلثوم، والذى تقول فى مطلعته:

قبتارنى ملئت بأنات الجوى

فقد أهملت منه البيت الثانى والذى يقول فيه محمد إقبال :

أشكروني في التراب وإنما

أشكرو مصاب الدين للدين

كما احتل المقطع الثالث من الأغنية المقطع الرابع من القصيدة. وهو الذي تقول في مطلعته أم كلثوم:

من كان يهتف بأسر ذائك قبلنا

وقد غيرت فيه بعض الكلمات .. فاختارت كلمة «من كان» بدلاً من كلمة «من قام» .. كما أهملت البيت الذي يقول فيه الشاعر:

عبدوا تماثيل الصخور وقد سوا

من دونك الأحجار والأشجار

والشاعر محمد إقبال كما هو معروف لنا يعد من شعراء الإسلام المعاصرين وقد تحدث عن مشوار حياته العديد من المؤرخين والنقاد وأساتذة الجامعات سواء في مصر أو في غيرها، وقد أفردوا له وحياته الصفحات الكثيرة .. حتى أن أستاذاً جامعياً متخصصاً في الفلسفة الحديثة كتب عنه فصلاً كاملاً باعتباره أحد رواد العقل والتنوير في الفكر العربي والإسلامي الحديث، حيث قال عنه الدكتور عاطف العراقي: «لقد بحث محمد إقبال في العديد من القضايا الفكرية، والأدبية والفنية .. ويمكننا القول بأن فكر محمد إقبال يعد من نوع الفكر المفتوح وليس من طراز الفكر المغلق الجامد .. لقد وضع لنفسه وللمسلمين فلسفة أخذها من صميم عقيدته، ولكن على أساس النظر إلى العقيدة من خلال العمل والسلوك (١)».

ولد الشاعر والفيلسوف الدكتور محمد إقبال في عام ١٨٧٣ في سيالكوت بالبنجاب .. من أسرة برهمية الأصل اعتنقت الإسلام منذ ثلاثة قرون وهاجرت من موطنها كشمير واتخذت من إقليم البنجاب وطناً جديداً استقرت فيه .. ولقد بدأ إقبال مراحل تعليمه الأولى فبدت عليه آفاق النبوغ وسمات الذكاء فكان يتفوق على زملائه آنذاك .. ويفوز بالجوائز العلمية في كلية الحكومة «لاهور» حيث تلقى هناك تعليمه ومبادئ الفلسفة، وما أن أتم تعليمه في هذه الكلية حتى إختير لتدريس الفلسفة بها (٢).

وأما الشعر فقد بدأ إقبال ينشده في سن مبكرة. وله عدة مؤلفات في العديد من مجالات الفكر والأدب.

(١) العقل والتنوير في الفكر العربي الحديث - د. عاطف العراقي.

(٢) من إدياء الإسلام المعاصرين - علي الجملاطي - مصدر سابق.